من أسباب العبودية لله

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2009/2/13م

تقدم الكلام في الأسبوع الماضي على مفهومَي العبادة لله والعبودية له، وعرفنا أن العبادة حينما لا تنبعث عن العبودية لله تكون شكلاً، لكنها في هذا الشكل صورةٌ من غير روح، فالتشابه بين العبادة التي تنبعث عن العبودية والتي هي مجرَّد حركة ظاهرة تشابهٌ كبير، لكن المعتبر عند الله تبارك وتعالى والذي يُغير الأحوال ويَبني الرجال إنما هي العبودية لله تعالى التي تنتج عبادة.

وتساءل كثيرون: إذا كان الأمر مهمًّا إلى هذه الدرجة، وإذا كان الأمر فيصلاً بين الإيمان والنفاق، فهل لنا أن نتعرف إلى بعض الأسباب التي من خلالها تتحقّق في باطن الإنسان العبودية لله تبارك وتعالى؟

فأحببت في هذا اليوم أن أذكّر ببعض الأسباب، وأختار منها ما أجده ضروريًّا في وقتنا هذا خاصة، في نفس الوقت الذي هو حاجة إسلامية عامة، واخترت أسبابًا سبعة:

1- بناء العقيدة السليمة.

2- بناء التوكل على الله.

3- الرضى بأحكام الله تعالى الشرعية التي أمر بها عباده في العبادات والمعاملات.

4- الرضى بأحكام الله الكونية في قضائه وقدره.

5- المداومة على ذكر الله.

6- التدريب على مراقبة الله.

7- التدريب على الاستغناء بالله عمن سواه.

هذه أسبابٌ مهمّة، إن نحن فهمنا كيفية تحقيقها وبنائها في القلوب من خلال منهجٍ سليم، نستطيع في النتيجة أن نرى رجالاً لا يأبهون بغير مولاهم، وينتهجون منهج الوسطية والتوازن، لأن الإنسان الذي لا يأبه بغير مولاه ليس هو المتهور ولا المتطرف، إنما هو الذي انضبط بالميزان الربانيّ: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7] والمنضبطُ بالميزان الربانيّ متوازن في حسِّه وفي معناه.

1- بناء العقيدة السليمة: وهي قضية غفل عنها كثيرون، وربما جعل بعضُهم مشروعَ بناء العقيدة مشروعَ التكفير والتشريك، أي بدلاً من أن يدل الناس على العقد الصحيح الذي به يُتقرب من الله تبارك وتعالى، والذي به يكون مقبولاً عند الله تبارك وتعالى، رأينا بعضهم يجعل مشروع العقيدة هذا من أجل الاتهام، أي أنه تحول من مشروع بناء إلى مشروع قضاء، وبدلاً من أن يكون صاحبُ مشروعِ بناء العقيدة داعيًا صار قاضيًا، فحَكَم غلى هذا بالكفر، وحَكَمَ على ذاك بالشرك.

ونحن لا نُشير إلى هذا المشروع الذي يزيد الأمة شتاتًا ودمارًا وفرقة، لكننا نتحدث عن بناء العقيدة في القلوب بتوجيهها إلى حقيقة وحدانية الله تبارك وتعالى، وانفراده بتأثيره في هذه المملكة الكونية.

هذا المشروع يوجه القلوب إلى الله، ويجعلها مرتقية في اهتماماتها، ومرتقية في إراداتها.

والله سبحانه وتعالى بيّن في كتابه العزيز، وأرشد نبيه الكريم إلى هذه الحقيقة، حقيقةِ وحدانيته تبارك وتعالى، ومما نقرؤه في كتاب الله تبارك وتعالى، وهو يحكي عن الدلالة على هذه الحقيقة، ما كان من سيرة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما خاطب قومه فقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 66-67] إذًا: إنه منهج العقلاء.

فكيف تقبل عقولكم أن تتوجهوا إلى الذي لا ينفع ولا يضر؟

كيف تقبل عقولكم أن تطلبوا من الذي لا ينفع ولا يضر؟

كيف تقبل عقولكم فكرة تأثير غير الواحد القهار الملك المهيمن العزيز الجبار... الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟

وهكذا أوجزوا في كلام بناء العقيدة فقالوا: **"تصديق القلوب لما أعلمه الحقّ من الغيوب"**.

فهو ما وقر في القلوب من العلم بالله، والتصديق لما أخبر عنه في كونه الذي نراه والذي لا نراه.

وعندها نعرف أنه لا معطي ولا مانع ولا نافع ولا ضارّ... إلا مولانا الواحد القهّار.

وعندها نعرف أن حول العبد لا يضر ولا ينفع.

وعندها يكون العبد في كل أحواله متضرعًا إلى الله الواحد، ومستعينًا به وحده.

وعندها يعلم في قلبه ويوقن أن الله تبارك وتعالى هو الواحد الذي لا ثاني معه، والذي لا أحد يفعل فعله، والذي ليس شيء يسقم أو يشفي أو يرفع أو يخفض أو يخلق أو يرزق أو يحيي أو يميت أو يسكّن أو يحرك... إلاّ الله.

بناء العقيدة يعني باختصار أن يصرف الإنسان عن عقله احتمال مشاركة غير الله تبارك وتعالى له في فعل من الأفعال، لأنه سبحانه وتعالى وحده الفعّال، ووحده الذي يتصرف في مملكته.

إن بناء العقيدة يبدأ من الطفولة، وذلك حينما نغذي الأطفال بهذه المعاني من خلال أسلوب مبسط ومشوق، ومن خلال استعمال الأدوات كلها والوسائل التي تُدخل هذه المعاني في قلوب الأطفال، ثم نرسخها في مرحلة الشباب، ثم نذكر بها في مرحلة الكهولة.

وهكذا تتكرر الأساليب، وتتردد على القلب مرات ومرات لتؤكد معنى وحدانية الله تبارك وتعالى، ولتؤكد لقلب الإنسان أنه ينبغي أن لا يستند إلى المألوف المعتاد المحسوس.

وفرقٌ كبير بين عالم الحكمة الذي من خلاله نتعامل بقانون السببية مع الأسباب والمسبَّبات، واعتقاد القلوب بأنه لا إله إلاَّ الله.

فرقٌ كبير بين أن تذهب وتراه في المعتاد ينفع ويضرّ، لتتعامل معه من خلال شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن تعتقد أنه هو الذي ينفعك، فالقلب ينظر إلى هذا الذي تذهب إليه وتراه في المعتاد يخفض ويرفع ويضر وينفع، وأنت في قلبك تراه أداةً بيد قدرة الله تبارك وتعالى.

بناء العقيدة السليمة لا يلغي تعاملك مع الأسباب، لكنه يؤصِّل في القلب اكتفاءه بالله تبارك وتعالى، ويزرع في القلب حقيقة كون الأكوان منفعلةً بقدرة الله تبارك وتعالى، لا فاعلة ولا مشتركة معه بالفعل.

2- بناء التوكل على الله: والتوكل على الله الاعتمادُ عليه والاستنادُ إليه في كل معضلة، بل في السراء والضراء، فإذا تأسس بناء العقيدة تأسيسًا صحيحًا، فلماذا تعتمد في قلبك على غيره؟

إذا تأسس في قلبك عنوان العقيدة وثبتت ثوابتها، فلماذا تستند إلى غير الله؟ ولماذا تعتمد على غيره؟

غيره يموت وهو الذي لا يموت، فهل تستند إلى الفاني أم تستند إلى الباقي؟

ألم يقل سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ أي اعتمد واستند، ﴿عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]؟

ألم يقل سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3] أي يكفيه، وما أحسن الذين يكتفون بربهم بعد علمهم بأنه وحده الذي يملك كل شيء!

ثم نقرأ في القرآن التوصيف العملي، عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعيش في المدينة المنورة، ويرى مِن حوله الطائفةَ المنافقة إلى جوار أهل الإيمان، فيعاني صلى الله عليه وسلم من سلوكيات مشوَّهة، ظاهرُها الطاعة لله وللرسول، لكنها في حقيقتها عداوة للإسلام، وهي عداوة لله سبحانه وتعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

وهاهنا في هذا الحال يوصِّف ربنا سبحانه وتعالى ويوظف التوكل، لأن التوكل عندما يبقى مفهومًا في الهواء لا تطبيقات له على مستوى الواقع، فإنه لا يكون مجديًا من الناحية العملية.

يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي يقول المنافقون للنبي صلى الله عليه وسلم: نطيعك فيما تأمرنا به، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ..﴾ [النساء: 81] وهاهنا الواقع المختلط الذي فيه المعضلات، والذي فيه العقبات، والذي يختلط فيه المؤمن مع المنافق، والذي فيه المؤامرات التي تدبّر... فماذا خاطب الله حبيبه؟

قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ [النساء: 81] لأن الحقّ تبارك وتعالى ضمن ظهور الحقّ، فالحقّ تبارك وتعالى ضَمن أن يدافِع عن الذين آمنوا، وضمن أن يبقي نوره ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: 33].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

فثِق أن هذا المكر وأن هذه المؤامرات سوف ترجع إلى أهلها: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43] فهما رأيت مكرهم مكرًا كُبَّارًا، ومهما رأيت مكرهم في الليل وفي النهار، ثِقْ وأنت تعتمد على الذي أخبرك أنه يحفظ دينه، وأنه يحفظ أولياءه، وأنه يبقي منهج الحقّ ظاهرًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثق بهذا واعتمد على من أخبرك به.

قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: 81]

إذًا: ها هنا توظيف التوكل بعد بنائه، فبناؤه يكون بعد بناء العقيدة، وعندما بنيت العقيدة وعلمت أن الله تبارك وتعالى هو وحده المتصرف في كونه، نظرت إلى قلبك فوجدته لا يعتمد إلاَّ على الملك الواحد سبحانه وتعالى واستعملت ما تحقق في قلبك من هذا التوكل في الأزمات، فوثقت بالله تبارك وتعالى وأنت تعتمد عليه.

3- الرضى بأحكام الله تبارك وتعالى الشرعيَّة: فالله سبحانه وتعالى لم ينزل الأحكام الشرعية من أجل أن نقبِّلها ونضعها على رؤوسنا، إنما أنزل هذه الأحكام الشرعية من أجل أن تصلحنا في العبادات لنتدرب على الانضباط في العبادات، ومن أجل تنظيم حياتنا في المعاملات، ومن أجل تدريب الإنسان على التوازن في أحواله الشرعية، وفي معاملاته المالية، ومن أجل تدريب الإنسان على التوازن وهو يتعامل مع غير أبناء ملّته، ومن أجل أن يكون متوازنًا وهو في السياسة أو في الاقتصاد أو الاجتماع... وعلى كل أصعدة الحياة، ومن أجل أن يكون متوازنًا في أسرته، ومن أجل أن يكون متوازنًا حتى في ذات نفسه... وذلك حينما يوازن بين الحاجات النفسية والحاجات المعنوية، وحينما يوازن بين فرحه وترحه.

الأحكام الشرعية تجدها في كتاب الله تبارك وتعالى وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهي مجالٌ واسع ينظم الحياة، ففيها الثوابت التي لا تتغير، وفيها المتغيرات في دلالاتها التي تقبل الاستنباط من أجل أن تغطي كل حركة يتحركها الإنسان.

فإذا وثقت بالقرآن، ووثقت بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعرفت أن الإسلام إنما هو قانونٌ إلهيٌّ أنزله إلى الإنسانية لينظمها، فرضيت بذلك، عندها تكون قد قطعت سببًا من أسباب العبودية لله تبارك وتعالى.

ألم يقل ربنا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ . .﴾ والعبودية لله تبارك وتعالى جوهرُها الإيمان.

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . .﴾ أي في كل شؤونهم وفي كل معضلاتهم.

﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65] فإذا لم يحصل هذا التسليم لأحكام الله تعالى الشرعية، لا يمكن للإنسان أن يدخل حال العبودية لله تبارك وتعالى أبدًا.

ألم يقل ربنا تبارك وتعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: 65]؟

ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24]؟

وهذا تصريح من القرآن الكريم بضرورة الصبر على أحكام الله تبارك وتعالى الشرعية، فقد ورد قوله تبارك وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ مرتين في القرآن الكريم:

- مرة أشار فيها إلى حكم ربّنا الشرعيّ.

- ومرة أخرى أشار فيها إلى حكمه بقضائه وقدره عندما قال سبحانه لحبيبـــه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: 48] الآيات.

هناك أشار إلى حكمٍ يتعلق بقضاء الله تبارك وتعالى وقدره لأن الله سبحانه جعله يعيش محنة، وهكذا يؤمر المؤمن في المحنة التي هي من قضاء الله وقدره ومن أحكامه الكونية، أن يكون راضيًا بحكم الله سبحانه وتعالى.

أما الرضى بالحكم الشرعيّ فعبر عنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا﴾ أي لا تطع في المنهج العمليّ آثمًا حاد عن الصراط المستقيم فوقع في الإثم، ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أعرَضَ عن منهج الله تبارك وتعالى، وستر حقيقة كونه الإمامَ للإنسان.

4- الرضى بأحكامه الله تبارك وتعالى الكونيَّة: أي بقضاء الله تبارك وتعالى وقدره، الذي منه قوله تبارك وتعالى كما أسلفنا: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: 48]

الرضى بحكم الله تبارك وتعالى في قضائه وقدره لا يكون إلا حينما ندرب قلوبنا على أن تكون ساكنة تحت حكم الله تبارك وتعالى في السراء وفي الضراء، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: 22 – 23]

هذا هو الرضى.

إياك أن تقول: لماذا كنتُ في الماضي مريضًا؟ ألم يشفِك ربُّك تبارك وتعالى؟

لا تقل: لماذا كنتُ في الماضي عاصيًا؟ ألم يمنَّ عليك مولاك بالتوبة؟

لا تقل: لماذا كنتُ فقيرًا؟ هذا قسم الله تبارك وتعالى.

لا تقل: لماذا لم أختصر الطريق؟ فلربما كانت في ماضيك تلك الرحلة الطويلة التي قضيتها سببًا في خير عظيم لا تعرفه...

وهكذا حينما يتدرب على الرضى القلبيّ لأحكام الله تبارك وتعالى بقضائه وقدره.

والرضى بالقضاء والقدر لا يعطل التكليف أبدًا، إنما يعطي الإنسان حالةً من السكينة والطمأنينة في باطنه، وأكثرُ الذين يقومون بالانتحار في البلاد المادية إنما سببه أنهم لا يملكون هذا الرضى، فلو ملكوا هذا الرضى لما وقعوا في هذه الجريمة التي يرتكبونها وهم يزهقون نفسًا.

ونقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى أيضًا: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي كيفما كان حكم ربك، وكيفما كان قضاؤه وقدرُه، اصبر وكن راضيًا بهذا القضاء، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: 48] فأشار بهذا إلى المدعّم الذي يدعّم الرضى بقضاء الله وقدره، وهو:

5- المداومة على ذكر الله: فالمداومة على ذكر الله تدعم هذا الرضى الذي تقدَّم، وهو السبب الخامس الذي أشار إليه تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 41-43]

فأنتم تعيشون ظلماتِ العبودية لغير الله تبارك وتعالى..

أنتم تعيشون ظلماتِ الخوف القلبّي لغير الله.. ظلماتِ الرجاء لغير الله..

فأنت في قلبك تعيش حالةَ الرعب، وحالةَ الرهبة، وحالةَ الرغبة لغير الله تبارك وتعالى... فلا يمكنك أن تخرج من هذه الظلمات إلاَّ بالمداومة على ذكر الله تبارك وتعالى، لأن الذكر الظاهر ينتقل إلى قلبك ليكشف ظلمة القلب، فالفم ساقيةٌ إلى القلب، وعندما يصل النور من لسانك إلى قلبك فإن ظلمة القلب تنجلي، وتكون في العبودية لله تبارك وتعالى وحده.

وانظروا جواب الذكر، حيث قال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، والجواب: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وهو مثل قوله المختصر تبارك وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، فأنت تذكر الله تبارك وتعالى وهو يذكُرك سبحانه.

﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ قابَلَها: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ قابَلَها: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾.

وهكذا يسير العبد من فعله الذي امتثل به أمر الله تبارك وتعالى، وسعى به إلى تحقيق العبودية لله تبارك وتعالى في قلبه، ورأى أن الله تبارك وتعالى قد قبله وتولاه.

يبدأ الإنسان عمله هذا مقبلاً على الله، فيجد الله تبارك وتعالى قد أقبل عليه إقبالاً لم يكن يتصوره.

ألم يرد في الحديث القدسيّ: **(إِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شبرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا.. إِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)** إنها عباراتٌ تقرِّب إلى قلوبنا وعقولنا فَرَحَ الله بعبده حينما يقبل عليه، فحين تقبل عليه تجده ينتظرك وتجده مقبلاً عليك.

المعاملة مع الله لا يمكن أن تخسر أبدًا.

حين تعامل العبد قد تخسر في معاملتك، لكنك حينما تتعامل مع الله لن تخسر أبدًا.

ثقوا بالله أيها الشباب.. ثقوا بالله أيها الكهول.. أقبلوا على الله فإنكم ستجدون في إقبالكم هذا إقبالَ الله تعالى عليكم، وستجدون ربحًا ما بعده ربح أبدًا.

6- أن ندرّب قلوبنا على مراقبة الله تبارك وتعالى: فهو سبحانه وتعالى الذي قال لنا في كتابه:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: 217-218].

إنها قضية تقلب حال المجتمع بأسره.

وما هي أزمة المجتمع؟

بل ما هي أزمة المجتمعات؟

حين لا يراه القانون يُفسد ويَسرق ويغش ويكذب... فحين لا يصل القانون إليه يفعل كل ما يخربه ويخرب غيره، فيقع في الرشوة، ويقع في كل الطرق التي تأباها النفوس الشريفة.

لماذا؟ لأن القانون لا يراه.

أما الذي يتعامل وهو يستشعر رؤية الله له، وهو يعلم أن الله تبارك وتعالى ناظر إليه ومطلع عليه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4] فإنه سيبقى في الاستقامة، وسيبقى في الامتثال، وسيبقى في الرضى، وسيبقى في العبودية لله تبارك وتعالى...

وفي سورة الفلق قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: 14] ألم يعلم وهو يخالف أمر الله، وهو ينحرف عن صراطه، بأن الله يراه.

سئل أحد العارفين عن المراقبة فقال: "إذا كنتَ فاعلاً فانظر نظرَ الله إليك، وتلا قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235]".

فالقانون لا يمكن أن يصل إلى ما في نفسك، لكن الله تبارك وتعالى يصل إلى ما في نفسك ويعلمه.

هذا هو الفارق بين المجتمعات التي تقوم على أساس الوضع البشريّ، والمجتمعات التي تقوم على أساس نظام الله وعلى أساس الإيمان بالله.

سوف تفشل القوانين الوضعية، وها هي تسير إلى الانحدار يومًا بعد يوم، فهي تسير إلى الانحدار الخلقيّ، وتسير إلى الأزمات المالية، وإلى كل أنواع الأزمات على المستوى البشريّ.

نعم، شتّان بين من يستند ويعتمد على نظامٍ وضعه مملوكٌ مخلوق، ومن يستند إلى نظامٍ أنزله ربّ العالمين وخالقهم ومالكهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: 14].

شتان بين النظام الذي يعلم، والنظام الذي لا يعلم، وقد قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216] فمهما تفوَّقتم في علومكم سيبقى علمُ الله هو العلم الأكمل المحيط الذي لا يَعزُب عنه مثقالُ ذرة في الأرض ولا السماء، فعلم الله يحيط بالمستقبل كما يحيط بالحاضر والماضي.

يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235].

وهكذا ينضبط الإنسان في حال المراقبة في سلوكه الظاهر، ويحاسب نفسه التي بين جنبيه، وأتحدى أن يوجد نظامٌ من وضع البشر يقدر على أن يوصل الإنسان إلى هذا الانضباط الذي يكون فيه في حال المراقبة لله تبارك وتعالى.

7- الاستغناء به عما سواه: فحين تصل إلى حال الاستغناء به عما سواه عندها تكون مهيَّأً للدخول في حال العبودية لله، واقرؤوا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ . .﴾ أي يكفيك الله، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64] أي ومن اتَّبعك من المؤمنين حَسْبُه الله، ويكفيه الله تبارك وتعالى.

قال بعض إخوان سهل بن عبد الله التستري: يا سيدي، نحتاج إلى القوت، فأجابه سهل: نحتاج إلى الله، فقال له التلميذ: لكن لابد لنا من القوت، فقال له الأستاذ: لكن لابد لنا من الله.

وهو سبحانه القائل في عبارة ينبغي أن نعيدها كثيرًا وأن نَعرض قلوبنا مرات ومرات على معانيها:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36] بلى إذا كنت عبدًا.

فإذا دخلت في حال العبودية لله أتتوقع أنك تعبد السيد الواحد ولا يكفيك؟

يقول عطاء: جاءني طاووس فقال لي: **"يا عطاء، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه"**، وطاووس هو طاووس في علمه وفقهه، وكان إمام عصره في العلم.

يقول عطاء: **"إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وجعل دونك حُجَّابًا"**، أي لا تصل إليه لأن الحُجَّاب يمنعونك من الوصول إليه، **"وعليك بطلب حوائجك إلى مَن بابُه مفتوح إلى يوم القيامة"**.

هل رأيت الله قد وضع بينك وبينه حجابًا، أم أنك في كل لحظة تستطيع أن تقول: يا الله، وتجده يقول لك: لبيك عبدي؟

في الليل تطلبه فتجده، وفي النهار تطلبه فتجده.

أصحاب المناصب يضعون في أحسن أحوالهم أوقاتًا لاستقبال شكاوي العباد، وحتى تصل إليهم تحتاج إلى أن تقطع عقبات وأن تمر على الحُجَّاب، أما الله فإنه فتح بابه لك في الليل والنهار وفي كل أوقاتك، فإذا رفعت يديك أو سجدت له وانطرحت في أعتابه وقلت له: يا رب، قال لك: لبيك.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: 186].

"إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه وجعل دونك حُجَّابًا، وعليك بطلب حوائجك إلى من بابه مفتوح إلى يوم القيامة، طلب منك أن تدعوه ووعدك بالإجابة".

هذه كلها من أسباب العبودية لله.

فحين نقدر على أن ندرّب الجيل الذي ينشأ، وحين نقدر على أن ندرب الشباب، وحين نقدر على أن نذكر الكهول والشيوخ بها... عند ذلك نصل إلى عبوديةٍ لله تبارك وتعالى تنتج سلوكًا، ولا يكون السلوك الإسلاميّ سلوكًا صوريًّا شكليًّا، إنما يكون منبعثًا عن حال العبودية لله تبارك وتعالى، والرجال حينما تبنى فيهم أحوال العبودية لله تبارك وتعالى سوف ترى منهم كل عجيب.

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.